الفصل الرابع
الحرب العربية - الخزرية الثانية(*)
(722 - 737م)

استناداً إلى المصادر، نجد أن السلام الذي نزل حينئذ على جبهة القوقاز قد استمر دون أن يخرق طوال ما يقارب الثلاثين عاماً، وقد شغل العرب باهتمامات

(*) ملاحظة مصدرية تتعلق بالفصل الرابع: جرى في القسم الأخير من هذا الفصل اعتماد ما عرف باسم البلعمي بشكل كبير، والبلعمي بمجمله هو ترجمة للطبري، لكن هنا لابد من تقديم بعض العبارات الموضحة، فقد بات من الثابت أن البلعمي هو أكثر من ترجمة حرفية للطبري، فغالباً ما أضاف معلومات من مصادر أخرى، مثل ابن الأثير، والبلاذري، واليعقوبي، فهؤلاء غالباً ما يقدمون مواداً إضافية لمواد البلعمي، لكن مع ذلك هنالك صلة قريبة بين البلعمي وابن الأعثم الكوفي، الذي نقل عنه في أماكن كثيرة، ولم يتم - كما أعتقد - نقل هذه الإضافات إلى نص الطبري بشكل منتظم، بل جرى التعبير عن بعض المواقف غير الموافقة، هذا وإنه لخطأ منهجي أن نقبل ما أخبرنا به الطبري، ونرفض ما قدمه سواه، وهذا أمر معترف به بشكل عام وفي جميع الأحوال بالنسبة لابن الأثير، والبلاذري، ورواية البلعمي حول السنوات النهائية للحرب العربية - الخزرية فيها تفاصيل مغرية بالاستخدام، لكنها تثير عدداً من المشاكل الصعبة، ومن الإهمال وضع هذه الروايات مع بعضها بعضاً، وفيها لم تعط عناية كافية للأسماء الخاصة. ويبدو أن الأرقام مبالغ بها (قدمنا هؤلاء بالعادة حسبما جاء في نص دورن مع بعض المعادلة) وهنالك بعض الحوادث - على سبيل المثال إنجازات سعيد بن عمرو - هي في جزء منها - كما يبدو - مخترعة، هذا ومن جهة أخرى تعود بعض المصاعب بدون شك إلى العرض والرواية، وليس إلى البلعمي نفسه، ومن المدهش أننا نجد أن ما قاله البلعمي له تأكيدات في أماكن أخرى، وحيث لا يوجد تأكيدات من مصادر أخرى، إن ما رواه البلعمي أو مجموعة أخرى اعتمدها، يبدو منطقياً بالنسبة لنا استخدامه، وهنا إن ما نجده معقولاً نأخذ به حيث لا مندوحة أمامنا، وفي أثناء محاولتنا إقامة هيكل الحوادث، أخذنا بعين التقدير الشكوك غير المحقة وتجنبناها، ومعيار آخر أخذنا به هو أن إنجازات: مسلمة، ومروان بن محمد، والقادة الأمويين الآخرين قد أثارت قليلاً من التعاطف أو الاهتمام بين خصومهم من الأسرة الحاكمة التي جاءت بعدهم، فلهذه الأسرة كتبت التواريخ التي بين أيدينا بشكل رئيسي.

جديدة، وامتصت التمزقات السياسية الطاقات التي وجهت من قبل ضد العالم الخارجي، وكان الخزر بدورهم قد انشغلوا خلال هذه المدة، لأنه وقعت في هذه الآونة نجاحاتهم على حساب البلغار، والتوسع غرباً الذي جرى وصفه، وانتهت الإجراءات ربما مع سنة 60هـ/ 679م، وكانوا بعد سنة أو سنتين جاهزين للمبادرة بالهجوم في جبهة القوقاز.

ونسمع أولاً عن هجوم قاده رجل يعرف باسم ألب مقدم «هون فارشآن» ضد ألبانيا (أران)، وذلك قبل عام 62هـ/ 681 ـ 682[1]، ولعل ألب هذا كان خزرياً، وأن كنيته هي الوتفير Ilutver (أي يلتاور التيير البلغار) الذي يمكن أن يعني أنه كان حاكماً شبه مستقل لفارشآن (ورثان) تابع للخزر[2].

ولقد ورد ذكر رسالة أرسلها ملك «الهون»، إلى اسحق رئيس أساقفة أرمينيا وجوابه عليها[3]، وقد جاءت تسمية رسل ملك الهون باسم زردكين خراسان، وشات ـ خزر، الأمر الذي جعل مينورسكي يرى أن العنصر الثاني في الاسم لابد وأنه يشير إلى قومية السفراء[4]، وقام في سنة 682 أسقف ألباني بالتوجه شمالاً، وبشر بالمسيحية بنجاح في ألب وجيشه، وقد روي أن المعابد الوثنية المكرسة على اسم الرب سباندیات، أو اسبانداياد الذي آمن به القوم على أنه كبير آلهة السماء[5]، قد جرى هدمها كما جرى قطع الأشجار المقدسة، وتم إعدام كهنة الديانة الشامانية المحلية، أو إحراقهم حتى الموت.

وتقدم لنا رواية أخبار هذه البعثة التبشيرية مشاهد صارخة حول الديانة الممارسة من قبل مجموعة، إن لم تكن من الخزر انفسهم، فقد كانت قريبة الصلة وشديدة الوشائج بهم، وذلك قبل تحول الخزر إلى اليهودية، ونجدها صلة مبكرة مع المسيحية، وهذا أمر نلتمس آثاره بين الخزر خلال تاريخهم بأجمعه، ولا تتحدث المصادر عن نتائج البعثة

---

(1) مرقوارت: 114، 302، نقلاً عن موسي كلنكتوكي ـ تحقيق شاهنطظيريان 2/ 36.

(2) زكي وليدي، ابن فضلان: 106.

(3) مرقوارت: 514.

(4) حدود العالم: 411، حاشية 1.

(5) مرقوارت: 429.

التبشيرية في عام 682، كما أنها لم تذكر بناء كنيسة[1]، ومن المرجح أن هذه النتائج لم تكتسب صفة الديمومة.

وينبغي تمييز حملة ألب عن حملة أخرى، وهي حملة خزرية كبرى جرت ضد الأراضي الواقعة جنوب القوقاز، ولربما كانت بعيد سنة 65هـ/ 685م[2]، وحدث في السنوات الأولى من حكم عبد الملك بن مروان (685 ـ 705م) أن ضعف التحكم العربي بالمنطقة[3]، ونتيجة لهذا، أو لسبب آخر هاجم الخزر جورجيا وأرمينيا وألبانيا، واستولوا عليها متناسين كما يبدو الصلة الدينية التي أقيمت مع ألبانيا مؤخراً، وقاوم السكان المحليون، لكنهم كانوا بلا حول ولا طول في مقاومتهم، وقتل في المعركة من قبل الغزاة كل من: أمير جورجيا المحلي، وغريغور مامي كونيا، أمير أرمينية.

وعليه يمكننا الافتراض أن نتيجة هذه المعركة كانت نصراً للخزر على نطاق واسع جداً، ومهما يكن الحال، يلاحظ أن هذه المحاولة لم يقصد منها ـ كما يبدو ـ الاستيلاء بشكل دائم على أراض تقع جنوب القوقاز، ذلك أن الخطر المتمثل في جيوش الخلافة كان ماثلاً أمام الخزر، وقد منعهم من اتخاذ هذه الخطوة، ولهذا نقرأ بكل بساطة أنهم بعدما دمروا البلاد جمعوا أسراهم وانسحبوا شمالاً عائدين.

وهكذا حدث أنه بعد عدة سنوات قام ـ كما روى الطبري ـ مسلمة بن عبد الملك ـ أخو الخليفة الوليد الأول ـ بالاستيلاء على عدد من القلاع والبلدان في أذربيجان، وشق طريقه مقاتلاً ضد الترك[4] إلى الباب، وإذا صح الاستنتاج هنا، يبدو أن الخزر كانوا قد استولوا بشكل مؤقت على المنطقة، وهناك رواية تتحدث عن الاستيلاء على الباب في سنة 90هـ من قبل محمد بن مروان[5]، لكن في سنة 91هـ وهي السنة التي

---

(1) المصدر نفسه: 302.

(2) المصدر نفسه: 443، نقلاً عن ستيفن أسوليك (أسوغيك) ترجمة دولورير.

(3) المصدر نفسه: 514. نقلاً عن ليفوند (غيفوند) تحقيق شاهنظيريان: 34 ـ 35.

(4) الطبري: 2/ 1200.

(5) كايتاني، التاريخ: 1088.

خلف فيها مسلمة محمد بن مروان، قيل بأن مسلمة تمكن من المحاربة في أذربيجان حتى وصل إلى الباب[1].

ويلاحظ أن هناك رواية لربما كانت صحيحة تقول بأن مسلمة هو الذي سيطر على الباب، وكان ذلك سنة 95/ 713[2]، ومهما يكن الحال فإنه من الواضح أن مدينة الباب الحصينة بقيت تحت السيطرة الخزرية لمدة قصيرة من الزمن.

وقام الخزر في أيام خلافة عمر بن عبد العزيز (717 ـ 720) بما يمكن عدّه هجومهم الأول ضد الإسلام[3]، فقد هوجمت أذربيجان في سنة 99هـ/ 717م، وجرى قتل عدد من المسلمين، وأرسل الخليفة حاتم بن النعمان الذي كان مثل ولدي ربيعة من قبيلة باهلة[4]، وقد هزم هذا القائد الغزاة وأوقع بهم خسائر فادحة، ثم عاد إلى الخليفة وفي ركابه خمسين من أسرى الخزر.

وكان هؤلاء أول الأسرى الخزر الذين ورد ذكرهم، حيث سيرد ذكر بعض الخزر أحياناً في داخل الدولة الإسلامية، ولعل أشهرهم كان إسحاق بن كنداج [كنداجيق] الخزري[5]، فقد كان معاصراً للشاعر البحتري، وكان موضوعاً لأماديحه مراراً، وقد قال البحتري فيه في قصيدة:

شرف تزيّد بالعراق إلى الذي ... عهدوه بالبيضاء أو ببلنجرا[6]

وأشار في مكان آخر إلى قوم إسحق بن كنداج، وأعلن أن أجداده قد كانوا قادة الملوك قبل ذو ـ رعين[7]. ولا شك أن هذا يرجع وجود الخزر إلى حقبة سحيقة القدم، لأن

---

(1) طبري: 2/ 1217.

(2) ابن تغري بردي: 1/ 255.

(3) كذلك كموسكو، العرب والخزر: 361.

(4) الطبري: 2/ 1346.

(5) قائد متميز في الحرب بين الخمارويه المصريين والخليفة المعتمد (870 ـ 892).

(6) الديوان، ط 1329/ 1911: 2/ 21 ـ 22. انظر أيضاً مرقوارت: 18. يشير الشعر نفسه إلى أصل ابن كنداج في «أرض الخاقان».

(7) المصدر نفسه: 2/ 294.

ذو رعين كان من ملوك حمير، وقد يكون البحتري قد اخطأ في هذا أو كان يبالغ، لكن القضية تختلف بعض الشيء عن الروايات التي تشير إلى القدم، ولعل كلماته قد ابتغت أن تقول أن ابن كنداج قد عدّ مقدماً (بك) لبلاد الخزر، مثله في ذلك مثل أجداده.

وقال البحتري في قصيدة أخرى أن ممدوحه قام بإنجاز أعمال جعلته جديراً أن يكون «ملك البيضاء» الذي يلبس التاج، ونستخلص من المقطوعة الشعرية نفسها أن اسم والده أيوب، وهو اسم من الأسماء الإسلامية الجيدة[1]، وتشير هذه النصوص إلى بعض ما ينبغي أن نتوقعه، وهو وجود معلومات عامة، عن الخزر بين رعايا الخلافة المعاصرين، هذا وسنشير في بعض الأحيان إلى خزر آخرين بين المسلمين في الفصول التالية.

ولكي نعود إلى سياق الأحداث، نجد أنه في سنة 103هـ/ 721 ـ 722 قام الخزر بالهجوم على اللان[2]، مما سبب الاضطراب في الجبهة، وهكذا يمكن القول أن الحرب العربية الخزرية الثانية قد بدأت عندما قابل في العام التالي جيش إسلامي بقيادة ثبيت النهراني، الخزر[3] في مرج الحجارة في أرمينية[4]، حيث جرى بينهما قتال عنيف، ونال الخزر ـ الذين قيل أن عددهم كان ثلاثين ألفاً[5] ـ نصراً كاملاً على العرب الذين سقط معسكرهم حينئذ في أيدي الخزر، وهرب الناجون من الجيش إلى بلاد الشام.

وقد غضب الخليفة يزيد بن عبد الملك (720 ـ 724)، وانزعج انزعاجاً شديداً، ووبخ ثبيت الذي قيل بأنه رد على الخليفة بقوله: «يا أمير المؤمنين ما جبنت، ولا تنكبت عن لقاء العدو، ولقد لصقت الخيل بالخيل، والرجل بالرجل، ولقد طاعنت حتى

---

(1) المصدر نفسه: 1/ 104، انظر أيضاً: 1/ 9.

(2) الطبري: 2/ 1437. اليعقوبي: 2/ 278. ويرى كموسكو (المصدر نفسه) أن هذا كان ردة فعل الخزر تجاه ضغط العرب على القسطنطينية سنة أو سنتين قبل ذلك.

(3) يقول ابن الأثير (5/ 41) كان الخزر مؤيدين من قبل القبجاق، والأتراك الآخرين، ولابد أن هذا وهم تاريخي. انظر الفصل التاسع.

(4) يبدو في أرمينيا (البلعمي: 509) وانظر أيضاً ابن الأثير، النص نفسه.

(5) البلعمي: 510.

انقصفت رمحي، وضاربت حتى انقطع سيفي، غير أن الله تبارك وتعالى يفعل ما يريد»[1]. ويلاحظ أن الطبري ليس لديه شيء يقوله حول هذه الانتكاسة.

وبات الآن التهديد لدار الإسلام عظيماً، فقد استعد الخزر إلى احتلال الأراضي التي أخلاها الجيش الإسلامي المتراجع، وجمعوا جميع قواتهم، وجرى بسرعة تعيين الجراح بن عبد الله الحكمي والياً على أرمينيا، مع أوامر تقضي بحرب العدو في داخل أراضيه، وكان ذلك سنة (104هـ)[2].

وعندما وصلت الأخبار إلى الجراح زحف على رأس جيش قوي، وكان الخزر قد انعطفوا متراجعين لمهاجمة الباب، حيث كانت حامية مسلمة متحصنة فيها، ووصل الجراح في الوقت نفسه إلى برذعه حيث أراح رجاله هناك عدة أيام، ليتحيّن الوقت ـ كما يبدو ـ وليقدر الموقف فيتخذ الإجراءات اللازمة، وهو في ذلك الموقع، ومهما يكن الحال فإن إجراء الجراح الذي شرع بتطبيقه من تاريخ تلك الزيارة، ظل معتمداً حتى التاريخ الذي كان يكتب فيه البلاذري[3].

وزحف الجراح عندها عبر نهر الكر، ووقف أخيراً عند نهر صغير يدعى روباس يبعد عدة أميال عن الباب، وأرسل رسالة إلى القادة المحليين يطلب منهم الالتحاق به مع أتباعهم، وقد علم الجراح أن واحداً منهم قد بعث إلى الخزر يحذرهم من قرب وصوله، وتبعاً لهذا أمر المؤذّن بأن يعلن للجيش أن قائده سيقيم على الروباس عدة أيام، وأخبر الخزر بهذا كما توقع الجراح وتصور، وكان الجزء الأساسي من قوات الخزر تحت قيادة «ابن الخاقان لعنه الله[4]» [لربما المقصود به مقدم (بك) بلاد الخزر] موجوداً في شمال الجبال.

وكان القادة المحليون راغبين في تجنب المواجهة ولهذا لم يقوموا بهجوم مستعجل وعندما أقبل الليل ألغى الجراح أوامره المتقدمة، وزحف بسرعة نحو الباب، ووصل مع

---

(1) ابن الأثير، النص نفسه.

(2) الطبري: 2/ 1453. ابن الأثير السنة نفسها.

(3) تحقيق دي ـ غويه: 206.

(4) دربند نامه: 464، الحاشية.

رجاله المدينة والظلام ما زال مخيماً دون مواجهة أية معارضة، ودخلوا عن طريق البوابة الخشبية لحصن النارين، وزحفوا إلى الداخل وعسكروا على مسافة قصيرة من باب الجهاد[1]، وتم في الصباح إرسال كتيبتين ذواتي قوة كافية من قبل الجراح مع أوامر قضت بالتوغل في أراضي العدو، والتجول فيها لمدة أربع وعشرين ساعة، وذلك على مسافة لا تتجاوز العشرين ميلاً، وزحفت في اليوم نفسه القوات الإسلامية بكاملها إلى مكان متفق عليه، وفي فجر اليوم التالي التحقت سريتا الإغارة بهذه القوات، وهما تحملان غنائم كثيرة من الأغنام، والسائمة، ومع عدد كبير من الأسرى كان بعضهم من دولة خيذان (قيتاق) التابعة للخزر[2].

ووصلت في اليوم التالي قوة خزرية مؤلفة من أربعين ألف رجل تحت قيادة «بارجيق[3] بن الخاقان» إلى حمزين[4]، لتوقف زحف المسلمين وتمنعهم من متابعة التقدم، وقد عزي للجراح تفوهه ببضع كلمات، وذلك قبل الاشتباك بالقتال، يستخلص منها مدى تقديره واحترامه لأعدائه، ومن المفترض أنه قال: «أيها الرجال لا ملجأ لكم تفرون إليه، ولا حافظ لكم إلاّ الله تبارك وتعالى، كل من يقتل منكم سيذهب إلى الجنة، وكل

---

(1) دربندنامه بالفارسية ـ دورن 464 ـ الحاشية. البلعمي: 511. انظر دربندنامه التركي، تحقيق قاسم بك: 544.

(2) لربما «خيزان» فارسي وقيتاق هو الشكل الأرمني لهذا الاسم (زكي وليدي بن فضلان: 191) ويظهر الاسم كخيزان في (البلاذري: 204، 206، معجم البلدان ط. دي فوبه: 4/ 251) والأشكال الأخرى بدون شك غلط مثل: جيدان (معجم البلدان ـ المادة ـ مروج الذهب: 2/ 7) حيد، حبد، جند، جندا و (مخطوطات البلعمي، دون: 511) خند أو جبد (زوتنبيرغ: 4/ 562).

(3) يقدم نص البلعمي: بارجيك، بار ـ حبل، بارحيل، بارحيك. ويفضل دورن بارجيل أو برجنك (466، حاشية 2) وبرجيك كاحتمال آخر ممكن (465). ونقلها زوتنبيرغ «برخبك» مع علامة تساؤل (5/ 27) وفي النص التركي من دربندنامه الذي نقل عنه دورن (463، الحاشية): «بشنك».

(4) في البلعمي، وابن الأثير، ودربندنامه «حصين» وهو غير صحيح، ويقول البلعمي في مكان آخر وهو يتحدث عن مسلمة: ومر حتى جاء إلى حصنين التي تكون من قلعتين (دورن: 534)، ويبدو أن هذه محاولة لشرح اسم غير عربي، ولدى البلاذري (206) حمزين، ويقدم زكي وليدي (ابن فضلان: 298، الحاشية) حصنين ويقول هي قايا ـ كنت (كاند).

من ينتصر منكم سينال غنائم كثيرة وذكراً طيباً»[1]، وتمزقت صفوف الخزر بعد معركة حامية وفروا، وقد قتلت منهم أعداد كبيرة.

وكما وعد الجراح، حصل المنتصرون على غنائم كثيرة، واستأنف الجراح زحفه بعد المعركة، وهكذا تمكن من الاستيلاء على كل من حمزين وترغو[2] واحدة تلو الأخرى، وقام الجراح بإسكان سكان هذين الموقعين في أماكن أخرى، ومن المفيد أن نقرأ أن بعضاً منهم قد جرى نقله قبله إلى جنوب القوقاز، التي احتلها الخزر ـ من رواية البلاذري ـ كما يبدو في أيامه[3].

ووصل الجراح بعد ذلك إلى بلنجر، التي كانت هدفاً لهجمات إسلامية متوالية، وشهدت حصاراً سالفاً في عام 32هـ، ويبدو أن دفاعاتها كانت في ذلك التاريخ مسؤولة جزئياً عن صد العرب، لكن سبعين سنة قد انقضت الآن حيث يبدو أن الدفاعات قد تداعت فيها.

وكانت العقبة الرئيسية أيام الجراح عبارة عن حاجز مطور مصنوع من العربات العامة، التي شد بعضها إلى بعض، وصفت على الأماكن المرتفعة حول الحصن، وعندما حصل الهجوم وجد المهاجمون أنفسهم في وضع صعب جداً على هذا الأساس، وأخيراً شهر واحد منهم سيفه وصاح: «أيها المسلمون، من يبيع نفسه لله؟» وأشار إليه عدد من رفاقه بالموافقة، وتعاهدوا جميعاً على الموت، فكسروا جفون سيوفهم مدللين على نيتهم هذه، ثم عادوا إلى الهجوم، وشقوا طريقهم بالقوة إلى أعلى إحدى التلال وذلك تحت مطر كثيف من النشاب «كان يحجب الشمس» ونجح بعضهم في قطع الحبل الذي كان يربط العربات بعضها إلى بعض، وشرع في جرها نحو الأسفل، وأصبح الخزر بالحال مكشوفين

---

(1) البلعمي: 512 ـ 513.

(2) ليس «يرغو» كما قال كموسكو، كالتصحيف الموجود لدى ابن الأثير، حوادث سنة 104. وترغو ليست سمندر نفسها، لأنها ذكرت بشكل واضح في الرواية نفسها (البلعمي: 513 ـ 514)، ويقول زكي وليدي (المصدر نفسه) ترغو هي «مخش ـ قلا» انظر مينورسكي، حدود: 452.

(3) تحقيق دي غويه: 194.

للمهاجمين، وحارب كل طرف من الطرفين بشكل يائس حتى بلغت القلوب الحناجر، وأخيراً ضعف المدافعون وشرعوا بالفرار وهكذا استولى المسلمون على المدينة عنوة.

ومما هو جدير بالملاحظة بالنسبة لثروة الخزر ومدى رفاههم، هو أنه عندما جرى توزيع الغنائم بعد سقوط بلنجر، قيل بلغت حصة كل فارس ثلاثمائة دينار[1]، وإذا لم يكن عدد الحاصلين على الغنائم مبالغاً به ـ حيث قيل إنه بلغ ثلاثين ألفاً[2] ـ فإن هذا يمثل بإجماله مبلغاً هائلاً من المال، حيث إنه ينبغي أن يضاف إليه الخمس الذي هو وفق الشريعة، كان حصة بيت المال.

وفر حاكم بلنجر الخزري[3]، مع حفنة من الرجال إلى سمندر، ووقعت زوجته وولده بالأسر. وعرضا للبيع كرقيقين، وقد اشتراهما الجراح بمبلغ عشرة آلاف درهم، وأرسل بهما إلى الحاكم الخزري كبادرة على حسن النية، وعرض عليه أن يرد عليه ما خسره من زوج وولد وحصن وممتلكات صغيرة وكبيرة، وذلك على أساس الخضوع لحكم الإسلام والشريعة الإسلامية كما جرت العادة، وقد قيل بأن الحاكم الخزري قبل بهذا، لكن من الصعب أن نرى كيف يمكن أن تكون هذه الرواية صحيحة، وذلك في ضوء ما حصل فيما بعد في بلنجر، وذلك أنه ما كان ليحدث لو أنها غدت مدينة إسلامية.

والحقيقة هي أننا لا نملك تفاصيل أخبار ما حصل تماماً، فبعد سقوط بلنجر، قيل أن الجراح أمر بتغريق عدد من الخزر مع أسرهم في نهر بلنجر كما هو مفترض[4]، وجرى أخذ عدد كبير من الأسرى ودمرت الحصون المجاورة، وهاجر معظم السكان منها كما قيل، ومن المفهوم بسرعة أن كثيرين منهم قد انتقلوا نحو الشمال، فبعد مئتي عام من هذا مرّ الرحالة ابن فضلان ببضعة آلاف من «البرنجار» بين بلغار الفولغا، والتشابه هنا واضح بين عبارتي برنجار وبلنجر، فكثيراً ما تختلف بعض مخارج الحروف، وفي إحدى المناسبات

---

(1) ابن الأثير حوادث سنة 104.

(2) رقم ابن الأثير. ويجعل البلعمي الرقم 000. 25 فقط أو 000. 20 قبل المعركة.

(3) البلعمي: 514 «منهاربلنجر». ابن الأثير «صاحب بلنجر».

(4) الطبري: 2/ 1453. انظر الفصل الثالث الحاشية 39.

بدا لابن فضلان أن هؤلاء كانوا من سكان المدينة الخزرية[1]، فقد كان البرنجار قد تحولوا إلى الإسلام حديثاً أيام ابن فضلان، وقد وجد واحداً من أبناء غير المسلمين يحمل اسم طالوت (شاول)، الأمر الذي قد يوحي بوجود اليهودية بينهم في تاريخ مبكر[2].

وزحف الجراح من بلنجر إلى حصن ومدينة وبندر (وندر؟)، وكان موقعاً عظيم الأهمية به عدد لا يحصى من المدافعين[3]، لكنهم خشوا من القتال وفضلوا الاستسلام على مال يؤدونه، وقرر الجراح متابعة زحفه إلى سمندر، وما أن وصل إلى أطرافها، حتى كتب إليه حاكم بلنجر السالف يحذره من متابعة الزحف، حيث وقف ينتظر المسلمين قوة من الأعداء كبيرة، وذلك في وقت كانت خطوط مواصلاتهم مهددة فيه، بسبب ثورات زعماء المناطق الجبلية، وهكذا صدرت الأوامر بالتراجع، وأعاد العرب عبور القوقاز، وبما أن الموسم قارب على النهاية، فقد زحف العرب لتمضية الشتاء في شكي[4].

ومن الواضح أن الجراح كان يأمل في استئناف العمليات في السنة التالية، وقد كتب إلى الخليفة يخبره بنجاحاته، لكنه أوضح له أن الخزر لم يجر سحقهم بعد، ولهذا طلب إنفاذ بعض القوات الإضافية إليه، وفي الربيع جاءت الأخبار تحمل نبأ وفاة يزيد (105/ 724)، وقام خليفته هشام بإقرار الجراح في منصبه وبعث يعده بإرسال المساعدات.

وعندما حل موسم الحملات قام الجراح بغزو بلاد الخزر ثانية، وزحف هذه المرة من خلال ممر درياك، وبلاد اللان[5]، وقام بعملياته ضد بعض المدن والحصون فيما وراء بلنجر، ولا نملك تفاصيل عن الحملة، ونحن بحاجة إليها، ولهذا نحن نجهل جهالة كاملة ردة فعل الخزر، وقد حارب الجراح اللان في العام التالي 106/ 725، وفرض عليهم

---

(1) تبعاً لزكي وليدي، المصدر نفسه: 191 ـ 192، انظر أيضاً ابن فضلان: 70.

(2) ابن الأثير، النص نفسه. انظر الفصل الثالث «وندر» الخ والملاحظات هناك.

(3) ابن الأثير، النص نفسه، هناك يتحدث عن 000. 40 أسرة.

(4) أو أنها سكى، على سبيل المثال ابن الفقيه: 288، وهي كما قال كموسكو «die stadt saba» (المصدر نفسه) نقلاً عن الياس النصيبي، وفي الترجمة اللاتينية (إ. ر. بروكز في مجموعة الكتابات المسيحية الشرقية) «Urbem shabbam» لكن ذلك غير صحيح.

(5) الطبري: 2/ 1462. ابن الأثير، حوادث سنة 105.

الجزية[1]، ولم يرد ذكر الخزر في هذه العمليات، وفي العام التالي استدعى الخليفة الجراح، وأسند ولاية أرمينية وأذربيجان إلى أخيه لأبيه مسلمة بن عبد الملك.

وجاء تعيين مسلمة في حد ذاته يحمل ما يوحي بالأهمية التي ارتبطت بجبهة الخزر في هذه الآونة. وكان مسلمة ابن أمة، ولهذا حرم من الوصول إلى العرش، وقد عمل لمدة تزيد على العشرين عاماً كواحد من أقطاب السلطة الأموية وأنشط قادتها على مسارح العمليات في الشرق، فقبل تسلمه لمنصبه الجديد كان قد قاد حملة عسكرية كبيرة ضد بيزنطة، عندما حاصر العرب العاصمة المسيحية لمدة تزيد على العام (98 ـ 99/ 716 ـ 717)، وقضى على ثورة يزيد بن المهلب (102/ 720) وقد وصلت أخبار فروسية مسلمة وشجاعته إلى حد الأسطورة[2]، وقد استولت إنجازاته الشخصية ليس على خيال معاصريه[3] بشكل فعلي فحسب، بل على خيال أجيال بعيدة عنه كثيراً[4]، هذا هو الرجل الذي وقع عليه الاختيار حينئذ، ليزيد من أمجاد الإسلام ضد الكفار من الخزر.

وأناب مسلمة في البداية الحارث بن عمرو، وهو من قبيلة طيء المشهورة ليكون في محله، وقد قام الحارث عام (107هـ) باحتلال بعض أراضي الخزر، حيث استولى على عدد من القرى[5]، ولم يكن لهذه المكاسب قيمة كبيرة، فقد ظهر الخزر في سنة 108هـ تحت قيادة ابن الخاقان، وزحف الحارث ضدهم واصطدم بهم في معركة، هزموا فيها وأجبروا على الفرار عبر نهر الرس (أراكس Araxes) وحاول الخزر التوقف هنا ثانية، ثم القتال، لكن هزموا من جديد من قبل المسلمين وفقدوا خسائر كبيرة، وقتل منهم ما لا يحصى[6].

---

(1) الطبري: 2/ 1472. ابن الأثير، حوادث سنة 106.

(2) انظر المستطرف ترجمة ريتر: 1/ 682، ومن أجل مسلمة وسيدة من مصر انظر عيون الأخبار لابن قتيبة، تحقيق بروكلمان: 211.

(3) على سبيل المثال: الكميت في الحماسة: 1/ 774.

(4) عولجت حملة مسلمة على بيزنطة في محاضرات الأبرار المعزو إلى ابن عربي، وهناك ذكر لها في «خمسية» الشاعر التركي نرغيسي.

(5) ابن الأثير حوادث السنة نفسها.

(6) المصدر نفسه، سنة 108.

وفي موسم العام التالي (109/ 727) وصل مسلمة شخصياً، وقد زحف من أذربيجان، فأعاد احتلال ممر دربند الذي كان العرب قد خسروه من قبل، وتابع سيره إلى داخل بلاد الخزر، حيث اعترض ـ كما قيل ـ الخاقان نفسه طريقه، فاصطدم به، وعاد بالأسرى والغنائم[1] وتبعاً لرواية المسعودي قام مسلمة في تاريخ لم يحدده بوضع حامية عربية في حصن كان يحمي ممر داريل[2]، ومن المحتمل أن يكون فعل هذا في حملته هذه، وقد قام الحصن على كتلة صخرية تشرف على عقبة عبر وادٍ عميق جداً، وقد كان كما قال المسعودي واحداً من أشهر الحصون في الدنيا.

وكان القتال في العام التالي أكثر شدة، فقد زحف مسلمة كما سلف القول من داريل (110/ 728)، واشتبك مع جيوش الخاقان لمدة تقارب الشهر، ثم جاء في الأخبار أن أمطاراً شديدة قد سقطت حيث هرب خاقان تحت غطائها[3]، ومع أن المسلمين ادعوا النصر، فقد راجت حكاية أخرى[4] مفادها أن مسلمة انسحب مجتازاً ما عرف باسم مسجد ذي القرنين[5]، حيث مقر ملك جورجيا.

وعلى الرغم من سمعة مسلمة، وقدراته، والنجاح الجزئي، الذي بدا وكأنه قد ناله، ظل كما هو واضح أن الأمر لم ينته مع الخزر بعد، فقد عادوا إلى الظهور في أذربيجان في العام التالي، ومرة ثانية جرى طردهم من قبل الحارث بن عمرو[6]، وفي هذه الآونة جرى استدعاء مسلمة من قبل هشام، وعاد الجراح بن عبد الله بعد غياب استمر عدة سنوات إلى الولاية.

وقد قيل بأن الجراح قد قام بحملة في أرض الخزر في العام (111هـ) نفسه، وتبعاً لابن الأثير زحف من تفليس (يعني من خلال ممر داريل)، وشق طريقه إلى البيضاء عاصمة

---

(1) المصدر نفسه، سنة 109. انظر اليعقوبي: 2/ 395.

(2) مروج: 2/ 43. . .

(3) الطبري: 2/ 1506. ابن الأثير سنة 110. ابن تغري بردي: 1/ 297. وقد دعاها غزاة الطين، ويبدو أن هذا خطأ، انظر ما يلي.

(4) ميخائيل السوري، تحقيق شابوت: 2/ 501.

(5) ابن الأثير، السنة نفسها حيث يقول: «مسلك ذي القرنين» لكن، وانظر مرقوارت 175.

(6) الطبري: 2/ 1526. ابن الأثير، سنة 111.

الخزر التي قام باحتلالها، وخبر هذا النجاح مبالغ فيه بالتأكيد، ذلك أنه لا مجال للشك في أنه لابد من حملة كبيرة جداً، لتكون قادرة على تنفيذ هذا الإنجاز بعد قتال عنيف، وتخريب منتظم لمراكز الدفاع القوية.

ومن المؤكد أن بلاد الخزر لم تخضع، ولم تلق السلاح في عام 111هـ/ 729م، ومن المحتمل أن سرية من سرايا الإغارة قد توغلت بهذا المقدار، هذا ولابد من أن يتساءل من جانب آخر كيف أمكن لقوة صغيرة نسبياً أن تصل إلى الفولغا، التي قامت عليها مدينة البيضاء، ثم عادت سالمة مجتازة لأراض عدوة كما روى ابن الأثير؟، هذا ويلاحظ أن المصادر الأخرى المعتمدة ليس لديها ما تقوله حول قيام أية حملة ضد بلاد الخزر في هذه السنة، ولا شك أن هناك خلطاً ومزجاً مع الحملة الكبيرة التي قام بها مروان بن محمد، (الخليفة المقبل مروان الثاني) التي سنأتي على شرحها فيما بعد.

وتتميز سنة 112/ 730 بأنها ربما كانت السنة التي شهدت أكبر هزيمة ألحقت بالعرب على أيدي الخزر، وهي في نفسها تحمل سبباً لرفض ما رواه ابن الأثير حول أحداث 111هـ، ففي سنة 112هـ تدفقت قوات الخزر من خلال ممر داريل[1]، تحت قيادة بارجيك السالف الذكر، ووصل تعدادها كما قيل إلى ثلاثمائة ألف رجل[2]، ومن المرجح أن الجراح كان قد أمضى الشتاء في شكّي كما فعل من قبل، ثم زحف إلى برذعة، ومن هناك إلى أردبيل منتظراً تطور الحوادث، وقام في تلك الأثناء بتحويل جزء من قواته إلى مناطق أخرى، ثم بعث بسرية تقوم بالتجول في المنطقة المحيطة به، وتسلم الخزر رسالة حول أوضاعه من أمير جورجيا[3]، وزحفوا حتى ورثان الجنوبية، التي شرعوا في حصارها، واشتبك الجراح مع العدو قرب ورثان، لكنه لم يكن قادراً على التفريج عن المدينة، ثم وجد بعد هذا أن ظهره عند أردبيل على مقربة من جيوش الخزر الرئيسة.

---

(1) الطبري: 2/ 1530. ابن الأثير، سنة 112.

(2) البلعمي: 517.

(3) المصدر نفسه: 516، وترجمة دورن (469) ليست صحيحة.

وقد نصح السكان المحليون الجراح أن يتخذ موقفاً دفاعياً بأن يجعل ظهره إلى جبل سيلان القائم على مقربة منه، ولم يقبل الجراح بذلك، وقرر المخاطرة بمنازلة العدو في سهل دعي باسم مرج أردبيل، وقع على مقربة، وعسكر الخزر أمام المسلمين، وبات الطرفان يستعدان للمعركة.

وكما جرت العادة لدينا عن القتال قليل من المعلومات المعتمدة، وكان الجراح قد قام أساساً بتقسيم قواته المتوفرة لديه، ومع ذلك فإن القوات الشامية، والقوات المحلية، وإن كانت غير كافية، فإنها ملكت من الشجاعة والصبر ما يكفي للاحتفاظ بمواقعها لمدة يومين في قتال من أعنف ما شهدته أو عرف من قبل[1]، ويبدو أن الجراح كان مخطئاً في قراره بالقتال في السهل المفتوح، فقد كان الخزر متفوقين بالعدد بشكل كبير جداً، ومع مساء يوم القتال الثاني وضحت هذه الحقيقة بشكل خطير جداً ومريع، فقد وضح ساعتها أن وضع المسلمين ميئوس منه، ذلك أن عماد رجالات الصفوف ـ وخاصة قراء القرآن، الذين كان يعتمد على تشجيعهم لرفع معنويات الجيش المسلم، في مثل تلك الأيام أضحوا في عداد القتلى.

ومع هبوط الظلام فر عدد من الباقين، متسترين به، وأخذوا طريقهم نحو بيوتهم في أذربيجان أو سواها، وفي فجر صباح اليوم الثالث كان ما بقي مع الجراح لا يتعدى القليل من الرجال مع الجرحى والمنهكين، وجدد الخزر هجومهم، وشرع العرب بالفرار، ومع هذا عندما صرخ واحد من أصحاب الجراح: «إلى الجنة يا مسلمين، وليس إلى النار، اسلكوا طريق الله وليس طريق الشيطان» استردوا عزائمهم وعادوا إلى مواقعهم وقاتلوا حتى قتلوا، وقتل الجراح نفسه مع بقية الجيش، وقطع رأسه، وسقطت إثر ذلك زوجته وأولاده أسرى بيد الخزر، ووضح أن نصر الخزر بات كاملاً، إذ غنموا غنائم كثيرة، وأخذوا يبحثون عمن يأسروه، فلم يجدوا من الجيش المسلم إلا من مات أو يموت، ومئة فقط هي التي فرت منه، وهوجمت إثر هذا أردبيل على الفور، ومع أنها

---

(1) ابن الأثير، السنة نفسها.

قاومت، تمكن الخزر من الاستيلاء عليها، فقتلوا جميع المقاتلة، وأخذوا النساء والأطفال أسرى[1].

وكان أثر هذه النكبة واسعاً شعر به المسلمون جميعاً، فلقد كانت شعبية الجراح كبيرة، وتركت خسارته مع موت عدد كبير جداً من رجاله أثراً عميقاً، وأثارت وحشية المهاجمين ردات فعل غاضبة[2]، ولقد تحدث الناس في وسط آسية عن هزيمة الجراح في تلك السنة ولسنين مقبلة[3]، واهتم الخليفة شخصياً بالخسائر الكبيرة، لكن أهم من هذا كله هو أنه بينما كانت الإجراءات اللازمة يتم اتخاذها في دمشق لمعالجة الموقف تابع الخزر تقدمهم، فاستولوا على أذربيجان، ووصلوا منطقة ديار بكر، وقاربوا أطراف الموصل[4]، وعرض هذا الوضع الخطير وتطوراته أمام الخليفة وأعوانه في دمشق، حيث بدا الحال وكأنه هجرة خزرية جماعية[5].

وكان الحجاج بن عبد الله أخو الجراح قد تسلم القيادة في الشمال[6]، وكما حدث من قبل لجأ هشام إلى أخيه مسلمة، لأن الوضع الطارئ تطلب ذلك، ولهذا تمت تنحيته، وبناءً على نصيحة من كاتب هشام، أرسل الخليفة سعيد بن عمرو الحرشي[7] من منبج في سورية، وكان هذا القائد قد سلف له أن تولى القيادة في جرجان[8]، وكانت نية هشام تقضي باستخدامه في التصدي لتيار الخزر إلى أن يتمكن مسلمة من النزول إلى الميدان.

---

(1) وكان النصر الخزري معروفاً أيضاً لدى البيزنطيين، انظر ثيوفانس، ط. بون: 626 سنة 720 (728م)، فقد تحدث عن ابن الخاقان، أما الرواية التي قالت بأن الجراح قد قتل في بلنجر فانظرها في الطبري: 2/ 1531، وابن الأثير السنة نفسها، ويبدو أن هنالك تداخل بين حصاره الناجح لبلنجر في سنة 104هـ، وقبل الإخفاق هناك سنة 112هـ.

(2) البلعمي: 519.

(3) الطبري: 2/ 1531 و 1595 (119هـ).

(4) ابن الأثير، السنة نفسها.

(5) انظر ميخائيل السوري: 2/ 105.

(6) ابن الأثير، السنة نفسها.

(7) أو الجرشي، ويقول فلهاوزن إن الحرشي نسبة إلى حريش بن عامر (الدولة العربية: 281).

(8) ابن خلدون: 3/ 62.

وتبعاً لما يروي ابن الأثير، عندما وصل سعيد إلى دمشق قال له هشام: «بلغني أن الجراح قد انحاز عن المشركين (الخزر)، قال: كلا يا أمير المؤمنين الجراح أعرف بالله من أن ينهزم، ولكنه قتل، قال: فما رأيك؟ قال: تبعثني على أربعين دابة من دواب البريد، ثم تبعث إلي كل يوم أربعين رجلاً، ثم اكتب إلى أمراء الأجناد يوافوني»، وأخذ هشام بهذا الرأي وعمل به، وتبعاً لرواية أخرى عقد الخليفة بيده لواء سعيد، وبعث به شمالاً مع ثلاثين ألفاً من خيرة الرجال، وزوده بما يلزم من مؤن، وأعطاه مائة ألف درهم لينفقها على حملته[1].

وعندما وصل سعيد إلى الجزيرة، وقف على عدد من بقايا جيش الجراح، وتبع ذلك مشهد مؤلم، ثم تابع زحفه إلى مدينة خلاط الأرمنية القائمة على بحيرة وان، فوجد الخزر قد استولوا عليها، وقاتلهم المسلمون، وأخذوا المدينة منهم، ثم ذهب إلى برذعه، فدمر حصنها تدميراً كاملاً، وقام سعيد في برذعه بتوجيه موعظة إلى أصحابه حضهم بها على الوحدة في الخطر العام، وطلب من الأغنياء التفريج على الفقراء، ثم طلب من الجميع التوجه بالدعاء للنصر، ومن ثم زحف يريد البيلقان.

وبينما كان سعيد معسكراً هناك، جاءه واحد من السكان المحليين يشكو له من أن ابن الخاقان قد وضع واحداً من طراختنه[2] في قرية مجاورة، وقد قام هذا الطرخان بأخذ ابنته، وأنه كان ساعتئذ سكران فاقداً لوعيه، ويمكن أسره بكل سهولة، وبناءً عليه أرسل سعيد واحداً من ضباطه إلى القرية، ووجدت الوحدة العربية الخزري سكراناً وهو نائم، والفتاة جالسة دون أن يلحق بها أذى بعد، وقتل الخزري حيث كان، ولحق القتل والأسر بقية الخزر، ثم عاد العرب إلى البيلقان، وأعادوا الفتاة إلى والدها.

وفي هذه الآونة كان المسلمون في ورثان ما زالوا صامدين على الرغم من شدة الحصار وثقله، وبعث سعيد، في محاولة منه لفك الحصار، بواحد من الخزر الذين يتقنون الفارسية

---

(1) البلعمي: 1520.

(2) في البلعمي: 522 «طرخاني أز آن خود» وهو لقب تجده بين الخزر مثلما تجده بين بقية الشعوب التركية، ولعله يفيد في ربطهم مع الأتراك الغربيين، وقيل إن معناه الأصلي هو «أبناء الحداد»، انظر زكي وليدي، ابن فضلان: 276.

فمر الرجل بين صفوف الخزر حتى وصل إلى الأسوار فأعلن للناس بأن النجدة قريبة منهم، وهكذا نجح سعيد في رفع الحصار، وتحول الخزر إلى حصار باجروان، لكن بناءً على زحف سعيد من ورثان رفع الخزر الحصار، وتحولوا ثانية إلى أردبيل، وسعيد يلاحقهم.

وفي برجوان وصل إليه فارس متوشح بالبياض[1]، فأخبره بوجود جيش خزري قوامه عشرة آلاف رجل معه خمسة آلاف من الأسرى المسلمين، يعسكر على مسافة أربعة فراسخ، وأرسل سعيد في الحال واحداً من رجاله ليستطلع الخبر، وكان المبعوث - كما هو مؤكد - إبراهيم بن عاصم العقيلي، وكان يحسن لغة الخزر[2]، ولم يصادف إبراهيم صعوبة في دخول معسكر الخزر وهو متنكر، واستعد في الوقت نفسه سعيد مع قوة مؤلفة من أربعة آلاف رجل للقيام بالهجوم.

وعاد العقيلي وهو يحمل من الأخبار ما يؤكد وجود الخزر في تلك البقعة، وروى كيف أنه شهد فتاة من نساء الجراح وهي تعذب من قبل واحد من الطراخنة، وأنه عندما سمعها تدعو الله أن يحميها، وجد صعوبة كبيرة في ضبط نفسه من عدم الذهاب إلى عونها، وتأثر سعيد ورجاله كثيراً بما سمعوه، وانطلقوا بالحال فوصلوا معسكر الخزر قبل انبلاج الصباح، وقبل أن ينذر الخزر كانوا مطوقين، وصاح المهاجمون الله أكبر، فوصل تكبيرهم إلى أسرى المسلمين داخل المعسكر، فثاروا، وانقض سعيد ورجاله على الأعداء وهم يحاولون الإفاقة، وكانت النتيجة مروعة، فقد جاء في الأخبار أنه عندما أشرقت الشمس كان الجزء الأعظم من عشرة آلاف قد وقعوا قتلى، وهرب الناجون إلى ابن الخاقان، وأخبروه بما نزل بهم.

وذكرت الأخبار مزيداً من الحوادث المشابهة التي نجح فيها المسلمون تحت قيادة سعيد، واجتمع الخزر أخيراً، فوصل عددهم إلى ما لا يقل عن مائة ألف تحت قيادة

---

(1) يبدو أن البلعمي قصد زائراً متفوقاً بشكل غير طبيعي. ابن الأثير السنة نفسها، وهو هنا يتكلم ببساطة عن راكب على فرس بيضاء، وجعل ابن خلدون القصة منطقية بجعله واحداً من جواسيس سعيد، (انظره: 3/ 89).

(2) ربما مولى ومن أصل خزري، وقد ذكر ثانية (الطبري: 2/ 1594 - 1595) مع إضافة نسبه الخزري (وقد خبرها بدون حاجة موللر).

بارجيك، وأقاموا معسكرهم على نهر البيلقان[1]، ومضى سعيد ومعه خمسون ألفاً من أهل: الشام، والجزيرة، والعراق، للقائهم، وبينما كان الجيشان يستعدان للاشتباك لاحظ المسلمون وجود رأس الجراح مثبتاً على عرش موضوع على عربة، كان ابن خاقان يصدر أوامره منها، وذلك في وسط صفوف الخزر.

وعندما رأى سعيد ذلك امتلأت عيناه بالدموع، وقال: «إنا لله وإنا إليه لراجعون» ثم قال: «سنظل نعيش بالعار ما دام رأس أخ مسلم مثل الجراح في حوزة الكفار»، وقام من ثم بالهجوم، وشق طريقه مقاتلاً إلى حيث وضع الرأس، ونزل بارجيك من العربة، وامتطى ظهر حصان، فضربه سعيد فرماه إلى الأرض[2]، وقد جرى إنقاذه من قبل حراسه الذين ترجلوا وأحاطوا بقائدهم، وتبعاً لرواية أخرى قتله سعيد وبعث برأسه إلى هشام[3].

ومهما تكن الحقيقة فإن ذلك كان نصراً إسلامياً آخر، وأجبر الخزر على الفرار مخلفين وراءهم ما لا يحصى عدده من القتلى مع كميات كبيرة من الغنائم، وعاد سعيد منتصراً إلى برجوان حيث جرى إحصاء الغنائم، وأرسل الخمس إلى الخليفة، وتسلم كل رجل من رجال الجيش حصته مما بقي من الغنائم، فبلغت كما قيل ما لا يقل عن 1.700 ديناراً[4].

وفي محاولة لمعرفة ما حصل بالفعل، نلاحظ أن الرواية حول نجاحات سعيد وإنجازاته عرضه للشك الشديد، ذلك أن الطبيعة الأسطورية للفارس المتوشح بالبياض الذي وجه المسلمين، وأعداد قوات الخزر التي كانت تجمع بشكل مستمر إثر كل هزيمة هي جميعاً أقرب إلى الخيال منها إلى التاريخ، يضاف إلى هذا أن الرواية فيها ما يوحي

---

(1) ابن الأثير: سنة 112.

(2) مزيداً من التفاصيل في قاسم بك «الطبري التركي»: 637.

(3) اليعقوبي: 2/ 381. وشرح المفضل بن سلمة قولهم في المثل «جاء برأس خاقان» بأن ذلك فيه إشارة إلى إنجاز سعيد بن عمرو (الفاخر تحقيق ستوري: 80) انظر أيضاً الحاشية 96.

(4) البلعمي: 531، والحجم كان كبيراً جداً بشكل واضح.

بارتباطها بتاريخ مبكر، مثل دعوة كل من الخاقان أو ابنه بعبارة «عدو الله»[1]، وهو وصف معاصر بدون شك، زد على هذا أن ساعة ويوم إحدى المعارك قد حددا تماماً[2].

وليس من المستبعد أن البلعمي، وابن الأثير، اللذان يقدمان التفاصيل نفسها قد قاما بتوسيع رواية الطبري القصيرة، أو بالحري قاما بملىء الفراغات بين كلمات البلاذري الذي حصر نفسه بقول بضع كلمات، ذكر فيها أن سعيداً رفع الحصار عن ورثان وهزم الخزر، وكان من المفترض أن الرواية بأكملها كانت معروفة من قبل الطبري، واليعقوبي أيضاً، مع أن أي منهما لم يقدم التفاصيل، على أساس أنها بدت وكأنها روايات معاصرة متخيلة.

أما بالنسبة لخدمات سعيد التي لا شك أنها كانت كبيرة، فقد حصد منها في البداية منافع شخصية متواضعة، فبعد توزيعه للغنائم زحف نحو ميمذ في أذربيجان ولم يكد يشتبك مع الخزر حتى تسلم رسالة غاضبة من مسلمة يلومه فيها لقتاله إياهم، ويعلمه باستبداله بعبد الملك بن مسلم العقيلي[3]، وتخلى سعيد عن القيادة، وبناء على أوامر مسلمة ألقى به في السجن من قبله.

وفي السجن جرى حديث بينه وبين مسلمة، فقد روى البلعمي أنه عندما جاء أتي بسعيد إلى مسلمة، سأله قائده عما إذا كان لم يتسلم أوامر بالتمنع عن مهاجمة الخزر، وإذا كان قد تسلم ذلك فلماذا عمل على انفراد وعرض المسلمين للمخاطر؟ وأجابه سعيد أنه لم يتسلم كلمة حول هذا حتى كان الله قد دمر المشركين الخزر ومنحه النصر عليهم، فقال له: «أنت تكذب لقد رغبت في أن تسمع الناس يتحدثون عن الأعداد التي قتلتها»، فقال سعيد: «ليس الأمر كما تقول لقد رغبت في إعلاء كلمة الله وعملت لضمانها، ويعلم الأمير أن ما أقوله هو الصحيح»، لكن غضب مسلمة لم

---

(1) المصدر نفسه: 529.

(2) المصدر نفسه.

(3) البلاذري: 206 اليعقوبي: 2/ 381. البلعمي وابن الأثير كل على حدة.

يسكن، وأمر بإهانة سعيد وتعذيبه، وكسر لواء الخليفة فوق رأسه، وألقي به في سجن برذعة، وعلم هشام بالخبر، وما أن عرف جلية ما حدث حتى كتب إلى أخيه يعبر عن عدم رضاه.

وكان مسلمة قد شرع ـ بعدما قام بما قام به ضد سعيد ـ بالزحف على الرغم من حلول موسم الثلوج والأمطار، وتابع مسلمة حركته داخل بلاد الخزر فيما وراء الباب[1]، لكن نظراً للوقت الذي ضاع، فاتت الفرصة لإنزال ضربة قاصمة بالخزر، ولا يمكن تعويض ذلك بتصرفات مسلمة غير المنطقية، ولقد عرف هشام ما كان أخوه يحاوله، فكتب إليه رسالة قال في آخرها:

أتتركهم بيمذ قد تراهم وتطلبهم بمنقطع التراب؟[2]

وعندما عاد مسلمة من حملته وجد نفسه مرغماً على المصالحة مع ضابطه السالف، فأرسل إلى سعيد رسالة الخليفة، وطلب منه المعذرة معلناً أسفه لما حصل، وأحضر سعيد من سجنه وخلع عليه وأعطي وأسرته جوائز ليفهم منها أن تشريفه مما يسر الخليفة، وأقطع أملاكاً ظلت تحمل اسمه فيما بعد، ونستنتج من مواجهة جميع المواد المستخرجة من عدد من المصادر أن أعمال سعيد كانت ذات أهمية حقيقية، على الرغم من تغليفها بالأساطير، وبناء على هذا فإنه يستحق أن يوضع بين أعظم القادة العرب نجاحاً في الحروب ضد الخزر.

أما بالنسبة لأحداث عام 112/ 730 فإن رواياتنا تتلقى بعض التأييد مرة ثانية من الجانب الخزري، حيث يبدو أن ذكرى الاستيلاء على أردبيل قد عاشت طويلاً بعد ذلك، فتبعاً لجواب يوسف، بعدما انتشرت الديانة اليهودية بين الخزر، ارتأى ملكهم إقامة مكان للعبادة، وقام في سبيل الحصول على الوسائل الضرورية لذلك بحملة عبر طريق دريل إلى المنطقة الواقعة جنوب الجبال، وعاد الخزر ومعهم كميات كبيرة من الذهب والفضة،

---

(1) الطبري: 2/ 1531 ـ 1532. ابن الأثير، سنة 112.

(2) البلاذري: 207. انظر أيضاً: حتي «أصول الدولة الإسلامية» نيويورك 1916: 324.

وأوقفت هذه الأموال على أعمال التأسيس في بناء التابوت والشمعدان والمنضدة وغير ذلك، وفي النماذج التوراتية.

وتضيف الرسالة الجوابية أن هذا كله كان موجوداً آنذاك، (في حوالي 960م)[1]، ولا شك أن هذه الحكاية أسطورية في شكلها القائمة به، مع أنه ليس بالأمر غير الطبيعي أن يكون لدى الخزر اليهود خيمة مقامة على انفراد للغايات الدينية، ذلك أننا نجد الشيء ذاته لدى المغول المسيحيين فيما بعد[2]، ولقد سلف لنا أن ذكرنا مناسبة جرى فيها نقل المعادن الثمينة من الأراضي الواقعة في جنوب القوقاز إلى الشمال[3]، ويمكننا أن نقول بكل طمأنينة إن نصر الخزر الكبير على الجراح لم ينسوه.

وبذل مسلمة جهده الأعظم من العام التالي 113/ 731[4]، فقد كانت الأوضاع من وجهة نظره لم تتحسن، حيث تجمعت قوات خزرية جديدة شمال القوقاز، ولم يتمكن الحارث بن عمرو الطائي الذي سلف لمسلمة أن تركه في الباب، من منعهم من احتلال الموقع مع ألف من أسرهم[5]، وكان من أخطر الأمور الأخرى سوء موقف الحكام المحليين إذ سببوا مشاكل واضطرابات كثيرة للمسلمين، فنحن نقرأ عن مقاومة في حبزان حيث اتخذ مسلمة إجراءات قاسية، ثم اجتاز إلى الباب مع وحدات من الحلفاء الماضين الذين بادروا بحكم الضرورة إلى الالتحاق به بناء على رغباتهم، وكان الخزر في المدينة المحصنة قليلين جداً لا يتمكنون من إعاقته، لذلك تركهم على حالهم.

---

(1) انظر الفصل الرابع.

(2) انظر أيضاً د. م. دنلوب «الكريتيون في شرقي آسيا» دورية معهد الدراسات الآسيوية والأفريقية، 1944: 11/ 2/ 278 ـ 279 ـ 286 ـ 287.

(3) انظر الفصل الأول.

(4) الطبري: 2/ 1560. ابن الأثير، سنة 113. اليعقوبي: 2/ 381، ويعطي اليعقوبي في مكان آخر (2/ 395) سنة 114. لامنس (الموسوعة الإسلامية، مادة مسلمة) ويعطى هنا تاريخ التراجع سنة 115م.

(5) البلاذري: 207، حيث يقول «ألف أهل بيت من الخزر» ويعلق زكي وليدي (ابن فضلان: 190 ـ الحاشية) أنه من الصعب الاعتقاد أن عبارة «أهل بيت» تعني أسرة منفردة. البلعمي (533 ـ 534) وعنده ألف رجل من الطراخنة (انظر أيضاً 536: ألف أسرة من الخزر).

وقام مسلمة بالتوغل داخل بلاد الخزر حيث نشر قواته وقد نجح في هذه الخطة بالرغم من خطورتها في البداية، فقد تم القضاء على عدد من الوحدات الخزرية المنعزلة بقتل أفرادها أو بإرغامهم على الفرار، وسقطت عدة حصون وبلدان بيد مسلمة كان منها بلدة حمزين، وقام السكان فيما لا يقل عن مكان واحد بإحراق أنفسهم حتى الموت، مفضلين ذلك على التسليم، وتابع المسلمون زحفهم حتى بلنجر، ثم عبروا جبال بلنجر[1] إلى سمندر، ودافع هذان الموقعان مثلهما مثل حمزين دفاعاً ضعيفاً، ثم استسلم من فيهما بعد أن ترك للغزاة غنائم كبيرة[2]. وكانت سمندر أبعد نقطة جرى الوصول إليها، وعندما علم مسلمة أن قوات الخزر الرئيسة مع حلفائها «في حشود لا يعرف عددها إلا الله» معسكرة على مقربة منه، ورأى وضعه مثل وضع الجراح[3]، قرر أن الضرورة تقضي بالتراجع، ثم بدأ زحفاً من أكثر الزحوف خطورة[4]، وقد أعطى قبل الانسحاب أمراً قضى بإشعال نيران عظيمة داخل المعسكر بغية خديعة العدو، وتركت الخيام مضروبة على حالها، وجرى التخلي عن الأثقال، وجاء بالرجال الذين كانوا آنذاك غير قادرين على الزحف والقتال في الوقت نفسه فوضعهم على مقدمة الزحف، بينما شكل العساكر الأصحاء المؤخرة، وساق العرب بسرعة حتى أنهم قطعوا فرسخين في الوقت الذي اعتادوا أن يقطعوا به فرسخاً واحداً، ثم عادوا متراجعين عبر الطريق الذي جاءوا عليه، وقد وصلوا إلى الباب ـ كما قال ابن الأثير ـ في آخر رمق، وبعد وقت قصير وصل الخزر بعد أن اجتازوا الممرات

---

(1) الطبري، المصدر نفسه. وذكر في حدود العالم: 47 «جبل الخزر» ويقول زكي وليدي (Volkerschaften, 44) إن المعني بذلك ربما قمة بوغوس في القوقاز.

(2) انظر ما سبق.

(3) كان تراجع مسلمة معروفاً لدى البيزنطيين، انظر ثيوفانس: 626. سنة 721 (729م).

(4) رواية ابن الأثير (المكان نفسه) هي الأكثر تفصيلاً. ولا يأتي الطبري (المكان نفسه) على ذكر الانسحاب (وكذلك اليعقوبي).

واقتربوا من المسلمين[1]، وصفّ مسلمة جيشه فجعل سليمان بن هشام[2] على ميسرته ومروان بن محمد على ميمنته، وترك العباس بن الوليد[3] أميراً على القلب.

وقد تلقى رجال القوات المحلية مع زعمائهم الصدمة الأولى لهجوم الخزر، ونشر العرب اللواء الأموي الكبير فوق رؤوسهم، وثبتوا في مواقعهم مع حلفائهم طوال النهار[4]، وقد ميز مروان نفسه في هذا اليوم، فكثيراً ما ابتعد عن الأنظار، ووصل الخبر مرة إلى مسلمة بأنه قد مات فصاح «لا والله حتى يتسلم الخلافة»، وعند المساء أخبر واحد من الخزر الفارين مسلمة بوجود الخاقان في عربة مغطاة بخيمة[5]، وحرضه على مهاجمتها، وتطوع مروان للقيام بهذه المهمة، ولكنها أسندت إلى غيره هو ثابت النهراني[6]، فاندفع هذا الضابط نحو الأمام مع مجموعة مختارة من الجند، وتمكن في ضربة واحدة بسيفه من قطع حبال الخيمة، وقد جرح الخاقان، لكنه تمكن خلال الفوضى من النجاة، وعندما رأى المسلمون ما يحدث، قاموا في ذلك الحين بحملة جماعية، وأصبحوا في الحال سادة الموقف[7].

---

(1) يتوافق الطبري وابن الأثير مع ثيوفانس (حاشية 88) في أن الصدام الرئيسي مع الخزر كان خلال هذه الحملة، أي الحملة التي قتل فيها ابن الخاقان قبل الانسحاب من بلاد الخزر، وذلك تبعاً للطبري وابن الأثير، ويقول اليعقوبي (السنة نفسها): إن القتال كان عند ورآن (هوتسما: ورثان) ومن المؤكد أنها «فرشان» يعني «ورثان الشمالية» (انظر الفصل الثالث، الحاشية 17). وتبعاً لابن الأعثم كانت المعركة عند دربند (زكي وليدي، ابن فضلان: 305)، ولا يمكن الافتراض أن الرواية مخترعة على أساس أن البلعمي وابن الأعثم ليسا موثقين، أو بسبب أنه لم يقل شيء عن معركة قادها مروان أثناء إبدائه رأيه عما أبلغه مسلمة الخليفة (انظر ما يلي) ويبدو أن هنالك تأكيد مستقل للحادثة (الحاشية 96).

(2) ابن الخليفة، كانت حياته مخفقة، وانتهت مأساوياً مع وصول العباسيين للسلطة.

(3) ابن الوليد الأول.

(4) البلعمي: 534.

(5) زكي وليدي (ابن فضلان 120) حيث ينقل عن ابن الأعثم وصف هذه العربة، التي يدعوها المصدر «جداده» (لعلها كلمة خزرية كما يرى زكي وليدي) وكانت أرضها مغطاة بمختلف أنواع السجاد، وكان غطاء الخيمة من الحرير البروكار، وعلى رأسها رمانة من ذهب، وبالنسبة لبقية العربات في قطار أمراء الخزر، انظر الفصل السابع.

(6) من المستبعد أن هذا كان قائد حملة سنة 103.

(7) ومع أن رواية البلعمي قد ذكرت بارجيك «ابن الخاقان» والخاقان أيضاً، لا يمكننا أن نفترض أن الاثنين قد قصدا حيث أن الرواية متداخلة، وتبعاً لابن قتيبة (المعارف: 185) قابل مسلمة خاقان =

وأصبح الحال بعد انسحاب الخزر يمكن من معالجة مسألة بلدة الباب بكل راحة، فلقد برهن الموقع أنه حصين جداً، ومن المتعذر الاستيلاء عليه بالهجوم المباشر، وذلك على الرغم من وجود المجانيق التي جلبها مسلمة معه لهذا الغرض، ولهذا لجأ مسلمة إلى اعتماد الخطة القديمة في تلويث مصادر المياه مما جعل الخزر يعتقدون بعد يوم واحد من العطش أنه لا أمل في متابعة التمسك بموقفهم، ولهذا غادروا البلدة في الليلة التالية وفروا شمالاً، ودخل مسلمة مع قواته الباب، حيث أعيد تنظيمها بشكل كامل في الحقبة اللاحقة، وأوجدت أحياء خاصة للدمشقيين، والكوفيين، والجزريين، والحمصيين، وبنيت الأهراءات للقمح والشعير مع مخازن للأسلحة، كما وجرى تعيين وال لها[1]، وأعيدت التحصينات ووضعت البوابة الحديدية في مكانها[2]، ومن الواضح أن هذه الإجراءات قد اتخذت في ضوء حرب مقبلة تقتضي ذلك، ووجهت بالأساس ضد الخزر،

= الترك (الخزر) وقتله، وبنى الباب في هذه السنة - 113هـ - ومن المرجح أنه قامت معركة مع الخزر في سنة 113هـ كما قيل لنا، ولا تشير الأخبار هذه (انظر أيضاً البلاذري: 207، فتبعاً له كان مروان مع مسلمة، وقد أظهر نفسه وميزها في الحرب ضد الخزر) إلى نصر سعيد في السنة السالفة، عندما - تبعاً لليعقوبي، وكما سلف بنا القول - قتل ابن الخاقان وأرسل رأسه إلى هشام، هذا ونجد من جهة أخرى إنه لمن المشكوك فيه أن زعيماً خزرياً آخر قد قتل سنة 113هـ (ابن الخاقان تبعاً للطبري وابن الأثير، والخاقان تبعاً لابن قتيبة) أثناء الحملة التي كانت على العموم غير ناجحة، وكلفت مسلمة - كما يبدو - منصبه، ومن المحتمل أن مسلمة الذي كان في ذلك الحين قائداً لسعيد، أنه نال الفخر لما قد وقع في السنة السالفة، ولا شك أن مثل «جاء برأس خاقان» الفاخر أو «أعز ممن جاء برأس خاقان» (الميداني) ولابد أن هذا المثل يشير إلى واقعة حقيقية، وهكذا قال فريتاغ في أنه يشير إلى ما حدث في آسية الوسطى في سنة 119هـ (الأمثال العربية: 1/ 195) ففي تلك السنة قتل خاقان الترك (الترغش) بعد هزيمة الأتراك في خصام خاص، وقد دفن من قبل شعبه (الطبري: 2/ 1613)، وقد أرسلت بعض رؤوس الأتراك وعليها أطواق خاقان إلى هشام (المصدر نفسه: 2/ 1616)، لكن ليس هنالك إشارة إلى أن جسده قد امتلكه العرب.

(1) البلعمي: 538.

(2) نقل كموسكو عن المؤرخ السرياني، المصدر نفسه (المتحف البريطاني Add, 14, 642) (بروكلمان: 235) حيث تحدث عن حجارين وفعله في جيش مسلمة.

وعندما انتهت هذه الاستعدادات رجع مسلمة يريد الشام بعدما ترك قريبه مروان مسؤولاً عن الولاية وكان ذلك عام 114هـ.

وترتبط المرحلة الأخيرة من الحرب العربية الخزرية الثانية باسم مروان بن محمد، فقد قام في أواخر عام 114هـ[1] (732) بحشد جيش وصل إلى أربعين ألف رجل، وزحف على رأسه مجتازاً بلنجر ومتوغلاً في بلاد الخزر، وسقط المطر بشكل مستمر، وقد قيل بأن مروان أصدر أمره أثناء الحملة بقطع أذناب الخيول بسبب الطين الذي التصق بها، وأنه من الطين نالت هذه الحملة اسمها[2]، ولا نقرأ كثيراً عما تم إنجازه اللهم إلا أن عدداً من الخزر جرى قتله، وأسر عدد آخر وكانت هناك غنائم.

ومَثُل مروان بعد هذا بأمد[3] أمام ابن عمه هشام، وعندما سأله عن سبب مقدمه أجاب بكل جرأة منتقداً جميع الإجراءات التي اتخذت ضد الخزر منذ هزيمة الجراح، وقد استخف بشكل خاص بما قام به مسلمة، وأصغى الخليفة إلى مروان عندما اقترح إرساله على رأس جيش مؤلف من 120.000 رجل، وبدأ هشام وهو مضطر إلى الإسراع باتخاذ قرار حول الموضوع، بسبب وصول أخبار من الشمال تتحدث عن إصابة سعيد بن عمرو ببصره، وكان سعيد قد ترك هنالك مسؤولاً عن الولاية، وقد كتب الآن إلى الخليفة يطلب منه تعيين خلف له[4]، وعلى هذا نال مروان ما ابتغاه، وارتحل يريد جبهة القوقاز مع عهد من الخليفة بتعيينه والياً على أرمينية.

وإذا صح ما أخبرنا به من أن سعيداً ظل والياً مدة عامين[5]، فإن من الصعب أن نتصور أن مروان قد عاد في عام 117/ 735 واتخذ مقراً جديداً له في كساك على بعد أربعين فرسخاً من برذعة وعشرين فرسخاً من تفليس[6]، وكانت مقاصده الأولى أن يقوم

---

(1) الطبري: 2/ 1562.

(2) البلعمي، المصدر نفسه، انظر حاشية: 51.

(3) ابن الأثير، سنة 114، ويبدو أن الإشارة هنا إلى أن مروان قد عاد مع مسلمة غلط.

(4) البلعمي: 539.

(5) البلاذري: 207، ويتجاهل الطبري ولاية سعيد (2/ 1563، 1573).

(6) كذلك البلاذري، المصدر نفسه. وعند البلاذري كسال وعند البلعمي كسال، لكن ابن الأعثم الكوفي كساك ويبدو أن هذا هو الصحيح (زكي وليدي، ابن فضلان 296).

بالهجوم ضد الخزر، ومع ذلك لم يكن بإمكانه تنفيذ هذا بالحال، فكما هي العادة كان هناك بعض الثوار في أرمينية، وتوجب عليه أن يعالج قضاياهم، واقتضى هذا بذل جهد قتالي كبير، وقضت الضرورة أيضاً القيام بحملة ضد بلاد اللان حيث استولى المسلمون على ثلاثة حصون، ولربما كانوا محتفظين بها[1]، ويبدو أن هذه العمليات جعلت مروان مشغولاً لمدة تزيد على العام، لذلك لم يستطع قبل عام 119/ 737[2]، أن يملك الحرية ليقوم بتنفيذ مهمته الأساسية في غزو بلاد الخزر وإخضاعها إذا كان ذلك ممكناً.

وعندما كان على نية تحريك جيشه ضد بلاد الخزر، أعلن أنه سيتوجه إلى قتال اللان، وأرسل رسولاً خاصاً إلى خاقان الخزر الذي أعطى المسلمين هدنة على أساس هذا التصور، وجاء رسول من عند الخزر ليؤكد هذه الشروط، وجرى تعويق هذا الرسول في معسكر المسلمين، بينما قاموا بإنهاء استعداداتهم.

ومهما كانت الآراء حول هذه المباحثات - ينبغي الأخذ بعين التقدير أن خديعة مروان جاءت على حساب عدو لئيم وخطير لأسرته وأمته - فإن خطة القائد المسلم وتصوراته جميعها تستحق الإعجاب، فقد كانت الخطة أولاً بسيطة وفيها أصالة وعبقرية، فقد استهدفت أولاً تأمين عامل المفاجأة، ثم الهجوم في الوقت نفسه عبر ممرات دربند وداريل، وجاء تنفيذ هذه الخطة ناجحاً على العموم، فقد ملك مروان زمام الأمر، وكان تحت تصرفه قوة كبيرة، لربما وصل تعدادها إلى مائة وخمسين ألف رجل[3] من متطوعة وأهل ديوان، وقد زحف على رأس الجزء الأساسي عبر ممرات داريل، وزحف في الوقت نفسه جيش آخر من الباب تحت لواء أبي يزيد أسيد بن ظافر السلمي، ولابد أن الخاقان قد بقي مدة طويلة مع مستشاريه على غير يقين مما يجري، وكانت

(1) الطبري: 2/ 1573.

(2) قدم ابن الأثير روايته الرئيسة عن حملة مروان في حوادث سنة 114هـ، لكن هذا مبكر جداً، وقد كرر الرواية باختصار في حوادث سنة 119هـ، ولا يوجد عند الطبري أكثر من حقيقة قوله إن مروان كان سنة 119هـ والياً لأرمينية وأذربيجان (2/ 1635). لكن من مراجعة ابن تغري بردي 1/ 314 يظهر أن هنالك إجماع على أن حملة مروان كانت سنة 119هـ/ 737م (أرتمونوف 738).

(3) كذلك البلعمي: 539.

الأوامر الصادرة إلى أبي يزيد تقضي بأن يتوقف عند سمندر، وهو موقع له أهميته، لكن ذكريات مروان فيه لم تكن متوافقة، ذلك أن التراجع الكبير لعام 113هـ قد بدأ من سمندر، فلقد شهدت هذه البقعة اضطراب أمر الجراح ومسلمة كذلك، فما من جيش عربي استطاع أن يتوغل إلى أعمق من هذه النقطة[1]، ويبدو أن نوايا مروان استهدفت في هذه المناسبة الوصول إلى سمندر على رأس قوة مثل قوته لا يمكن صدها، وحمل الغزاة فوق كل العقبات إلى قلب بلاد الخزر.

وجاز الجيش الشمالي بلنجر، واجتمع الجيشان في غايتيهما ضد مقاومة غير كبيرة، وعندما تم الوصول إلى سمندر[2] جرى عرض عظيم للجيش، وخرج الجيش - كما أخبرنا - متوشحاً جميعه بالبياض - شعار الدولة الأموية - ويحمل أفراده رماحاً جديدة[3]، ويمكن أن يكون هذا قد صنع بعيداً عن القواعد، وهو أمر لا توجد إشارة حوله، فلربما رأى مروان أنه من المفيد حمل قطار من الأثقال معه، في سبيل إعطاء الزحف على سمندر مكانة علوية لدى كل جندي في جيشه.

وجرى الاحتفاظ برسول الخزر، حتى آخر لحظة ممكنة، ثم استدعاه مروان، وقام بتوجيه الشتائم إلى الخزر، ثم أعلمه بإعلان الحرب، ومع ذلك بعد هذا كله أرجع الرسول عبر طرق ملتوية لكسب ما أمكن من الوقت[4]، وعندما وصل الرسول أخيراً إلى سيده، كان مروان قد توغل عميقاً في بلاد الخزر، وقام الخاقان - وقد خشي مما جاءه خشية كبيرة - بجمع مستشاريه، وطلب منهم إبداء الرأي[5]، وإعطاء النصيحة، وكان أفضل ما أوصوه به الفرار من العاصمة على أساس أنه كان ميئوساً من القدرة على التصدي للمسلمين، ومن غير الممكن الانتظار حتى يمكن جمع قوة كبيرة للقتال، وبناء عليه انسحب الخاقان

---

(1) ما عدا إمكانية إغارة إحدى السرايا، انظر ما سبق.

(2) البلعمي: المصدر نفسه.

(3) كذلك عند ابن الأعثم الكوفي نقلاً عن زكي وليدي، ابن فضلان: 296...

(4) ابن الأثير: سنة 114.

(5) ابن الأثير: السنة نفسها، فهناك يتحدث عن «ملك الخزر»، انظر البلاذري: 208 حيث عنده «عظيم الخزر»، وسنذكر الاجتماع، انظر ما يلي.

شمالاً نحو الجبال (Urals)، وتركت عاصمته مغطاة بقوة مختارة ذات حجم كبير، وزحف مروان من سمندر، ووصل بعد حين إلى مشارف البيضاء[1] حاضرة الخزر يومذاك، كما دعاها العرب، لكنه لم يحاول حصارها، وعوضاً عن ذلك انحرف عنها وزحف نحو الشمال على طول الضفة اليمنى لنهر الفولغا.

وكان يوجد في أعالي بلاد الخزر مستوطنات تعود إلى شعب كان يدعي باسم برطاس، وقد امتدت هذه المستوطنات مسافة طويلة وصلت حتى مناطق بلغار الفولغا[2]، وكان هذان الشعبان ـ برطاس والبلغار ـ تابعين لإمبراطورية الخزر في ذلك الحين، كما كان الأمر بين حين وآخر، وتعرض البرطاس حينئذ إلى هجوم المسلمين بشكل مباشر، وعانوا من ذلك عناءً كبيراً، فلقد قيل بأن عشرين ألف أسرة أخذت أسرى، وأجبرت على الهجرة جنوباً[3]، وأحدث المهاجمون فوضى كبيرة أيضاً بين قطعان الخيول في تلك المنطقة[4].

وساير في الوقت ذاته الجيش الخزري السالف الذكر ـ تحت قيادة قائد اسمه هزار طرخان ـ مروان مسايرة فلاحقه على الشاطئ الآخر للفولغا[5]، وجاء الوقت الذي قدر مروان أنه بات مناسباً لحرب الخزر، وقد عهد بعبور النهر إلى ضابط شامي اسمه كوثر بن الأسود العنبري، صدرت إليه الأوامر بإدامة مراقبة العدو والبحث عنه ونصب الكمائن له أينما وجده، واقترح مروان أن يقوم هو نفسه بالعبور فيما بعد، عندما يمكن أخذ العدو بينهما، وكان كوثر مكرهاً على التحرك (كما هو متصور أن يكون)، ولكن مروان كان لا يقبل الانتظار، ومن المقدر أن نوعاً ما من أنواع الجسور[6] قد بني على الفولغا، الذي أمكن للجماعة الأولى من المسلمين العبور عليه، وقد صادفت مجموعة من الصيادين الخزر فقهرتها وقتلتها، وبينما كانت المجموعة العربية تستعد للعسكرة لإمضاء الليل على حافة

---

(1) كذلك ابن الأثير، وابن تغري بردي، وابن الأعثم الكوفي.

(2) انظر الفصل الخامس.

(3) البلاذري: 208. ابن الأعثم الكوفي، المصدر نفسه.

(4) البلعمي: 540.

(5) ابن الأعثم الكوفي، المصدر نفسه.

(6) انظر زكي وليدي، ابن فضلان: 300، الحاشية 1.

الغابة بعد أن تركت السهوب خلفها[1]، شهدت الدخان يتصاعد من وسطه وهنا قدر المسلمون ـ وأصابوا في تقديرهم كما تبرهن على ذلك الأحداث ـ بأن ذلك صادر عن جيش الخزر، واندفع كوثر ورجاله نحو الأمام فأطلوا على معسكر الأعداء، وحمدا لله كان من فيه غافلاً عنهم لا يتوقع وصولهم لذا حازوا منه على نصر حاسم، وعرف كوثر من الأسرى أن قائد جماعة الصيادين التي صادفوها من قبل هزار طرخان نفسه، ولم يكن هنالك قتال آخر شرقي النهر أو غربيه، والتحق كوثر ثانية بقائده، وقام الخاقان بعد أن وجد القوات التي كانت متوفرة لديه قد دمرت بمراسلة مروان يطلب الصلح، وعرض عليه مروان كما قيل خيارين واضحين هما: الإسلام، أو السيف، وطلب الرسول إمهاله ثلاثة أيام حتى يعود بالجواب النهائي، مما يشير إلى أن الخاقان لم يكن بعيداً، ومع انتهاء المهلة عاد الرسول ليعلن أن الخاقان على استعداد لقبول الإسلام.

وطلب الخاقان في رسالته إليه من يعلمه الإسلام، وأرسل مروان اثنين من الفقهاء هما: نوح بن السائب الأسدي وعبد الرحمن الخولاني[2]، ويبدو أن موضوع المناقشات الرئيسي كان حول الامتناع عن تناول بعض أنواع الطعام: اللحم النجس، ولحم الخنزير، والخمر، وطلب الخاقان أن يسمح له بشكل خاص باللحم والخمر، وقاد هذا المطلب إلى خلاف بين الرفيقين، وأخبر الخاقان في النهاية بأن التحريم نهائي، وأعلن الخاقان عن استعداده للقبول بما قضت به الأحكام، ولم يعد هنالك المزيد من العوائق وأعلن الخاقان عن إسلامه.

وإذا ما خمنا نوايا مروان، فإنه كان يريد معاملة بلاد الخزر مثل الإمارات الصغيرة في القوقاز، تلك التي أصبحت مستقلة عندما تقبل حكامها دين الخلافة، لكن بلاد الخزر كانت ذات شأن آخر، فقد بدا الحال أن الوالي العربي الذي سيعين عليها سيحتاج إلى جيش قوي دائم، فذلك ضروري للاحتفاظ بالبلاد ولا شك أنه كان بإمكان مروان في تلك الساعة تقديم الأمرين المرغوب بهما: أي الوالي، والجيش القوي، لكنه لم يفعل

(1) أكد ابن رستة / 140/ السمة الحرشية لبلاد برطاس.

(2) البلعمي، ابن الأعثم الكوفي.

شيئاً من هذا القبيل، ومن الممكن تقدير المعايير التي أقامها تخميناً، فلعله رأى الاضطرابات الداخلية مقبلة في داخل الدولة، ورغب بالاحتفاظ بعدد كبير من العساكر، وتوفيرها للطوارئ، وأمل في أن يكون قادراً على حكم بلاد الخزر، من خلال خاقان مسلم، ولما أشرف الخاقان الخزري على عاصمته، ودعه مروان وزحف جنوباً مع جيشه المنتصر وقطار طويل من الأسرى[1]، وهكذا انتهت «غزوة السابحة» وهو الاسم الذي أطلق على الحملة[2].

ولعله من الصعب تجنب الشعور بأهمية ما حصل، إذ أن هناك أشياء كثيرة لابد أن تصدر عن النجاح الإسلامي، ولا شك أن مروان كانت لديه أسباب وجيهة للانسجاب، فقد كان عمله من إحدى وجهات النظر طبيعياً ومنطقياً، فقد طبق على بلاد الخزر سابقة كان متعارفاً عليها، والمقصود بذلك قاعدة الإمارات القوقازية، فلقد عاش في أيام ليست أيام الجيل الأول من المسلمين، عندما كانت تقوم مشاكل جديدة، فتبدع لها حلول جديدة ناجحة في التطبيق، وحين طبق مروان هذه السابقة برهن ـ أو هكذا يبدو ـ أن تصوراته السياسية لم تكن بأي شكل من الأشكال بمستوى عبقريته العسكرية، فلقد وجد العرب في هذا الوقت الفرصة لإزالة ما كان منذ البداية عقبة دائمة في طريق تقدمهم أو خطراً على أمنهم، وبدا أن هذه الفرصة قد قذفت جانباً من قبل الرجل الذي صنعها، وهي فرصة لم تأت ثانية، إذ كتب لبلاد الخزر ألا تكون ولاية مسلمة، بل أن تبقى كما كانت عقبة في وجه العرب، ووسيلة تهديد عظمى لهم، وذلك حتى يوم سقوطها، بعد ذلك بوقت طويل، على أيدي أخرى غير عربية.

ويمثل ما تبقى من ولاية مروان ما له قيمة ضئيلة مباشرة بشكل عام بالنسبة لتاريخ الخزر، فلقد أمضيت السنتان أو الثلاث التي تلت سنة 119هـ/ 737م في عمليات

---

(1) استقر الأسرى الخزر «فيما بين سمور و (نهر) شابران في الأراضي المنخفضة للكز»، وقد أرسل البرطاس إلى خخيط (كخيتيا) حيث قتلوا أميرهم (المسلم) وهربوا، لكنهم أمسكوا من قبل مروان وقتلوا (البلاذري، المصدر نفسه).

(2) ابن تغري بردي، المصدر نفسه.

عسكرية ضد آفار السرير، ومجموعات أخرى[1]، وفي الوقت نفسه ترك خاقان الخزر - كما يبدو - لنفسه، وأما بالنسبة لما كان يحدث في بلاد الخزر نفسها، فيمكن أن نجد ما يدلل عليه في العمل الذي كان يقوم به رجل اسمه أويس بن مضار[2]، الذي كان مقدماً لجماعات اللكز (Lesgians) إذ رفض الخضوع، واعتصم في قلعته فحوصرت القلعة، وترك القلعة كما يبدو في عام 122هـ/ 740م، وهرب منها ليلاً مع عدد من أصحابه وكان ينوي الالتحاق «بملك الخزر»، ويبدو أن أويس هذا كان يراسل بعض الأسرى الخزر الذين أسكنوا حديثاً في المناطق المجاورة له[3]، وأنه رأي في هذه الآونة الخاقان قد صار بإمكانه اتباع طريق مستقل، وإذا صح أن عام 740 هو التاريخ المضبوط لتحول الخزر إلى اليهودية[4]، وهو لا شك صحيح ويستخلص هذا من رواية عرضية للبلاذري، بأن مروان قد عين في هذا الوقت شروان شاه في وظيفة عالية، في «أن يكون في المقدمة، إذا بدأ المسلمون بغزو الخزر»[5].

وللوهلة الأولى، لا يشك بأن الخاقان أصبح مسلماً في عام 737م ثم تهود بعد ثلاث سنوات، وهذا على الأقل أمر مدهش[6]، ولقد سلف وقيل بأن الأمرين يحملان شيئاً من العلاقة ببعضهما بعضاً[7]، وما زال علينا أن نبحث في مكان آخر، تاريخ تحول الخزر إلى اليهودية.

وينبغي في الوقت نفسه إدراك أن ظاهرة نادرة بهذا القدر في جميع التاريخ قد تصبح أكثر فهماً، لو أن الوضع الديني والسياسي في بلاد الخزر كان مضطرباً اضطراباً شديداً قبل

---

(1) البلعمي: 541. . . البلاذري: 208. . . ابن الأثير، سنة 114هـ وكرر ذلك في سنة 121 مع آثار في مكان ثالث، سنة 118.

(2) البلعمي: 545. ابن الأثير، سنة 114 وسنة 118.

(3) انظر الحاشية: 121.

(4) انظر بشكل خاص الفصل السادس.

(5) البلاذري: 209.

(6) إذا كان يهودياً سنة 737م، أو أقل من ذلك، انظر ما سبق حوادث سنة 112/ 730.

(7) مرقوارت: 13.

عام أو عامين، وينبغي أن يقام التقدير هنا إلى أن قصة الخلافات والمناقشات الدينية التي قامت تبعاً للمصادر العبرية أمام الخاقان قبل تحوله إلى اليهودية، مما يمكن ربطه بوجود بعض المشايخ الذين أرسلهم مروان، ولقد ورد[1] أن رجلاً اسمه عبد الرحمن بن الزبير قد جاء ذكره في الحديث على أنه واحد من بين ثلاثة رجال قاموا بتحويل ملك البلغار إلى الإسلام، وأن عبد الرحمن الخولاني كان أحد الفقيهين اللذان كانا مع الخاقان، غير أننا لا نستبعد أن ما حصل هو أن هذا الرجل انسحب من بلاد الخزر بعدما أخفق في بعثته التبشيرية، فاتجه بحظ أوفر وتوفيق إلى بلغار الفولغا.

وقد سلف ولاحظنا أن مروان كان قد انشغل لبعض الوقت بعد عودته من بلاد الخزر في حربه وإخضاعه لملوك الجبال، لكنه كان كما يبدو ينوي استئناف العمليات العسكرية ضد الخاقان في موعد لاحق، ولا نجد في أي مصدر أنه قد فعل ذلك، ذلك أن الاضطراب وعدم الرضا عن ولايته قد انتشر بين السكان، وكان عليه معالجة قضية حركة خارجية قوية، ولقد احتفظ بمنصبه في الولاية حتى وفاة هشام (125/ 743)، وبعد ذلك خلال عهدي حكم الوليد الثاني ويزيد الثالث القصيرين، لكن ما من عمل قد اتخذ ضد الخزر كما يبدو.

ولا شك أن هؤلاء الخزر قد استفادوا من الفرصة المتوفرة واستغلوها لتمتين أوضاعهم، ولا سيما تفجر الأحداث وتفاقمها بعد 129/ 744، وهي السنة التي ترك مروان فيها ولايته عازماً على نيل الخلافة. ولعله ليس من المغالاة القول أن الصراع الأسري اللاحق بين الأمويين، والعباسيين، قد أنقذ دولة الخزر وحماها، فلقد كان من بين نتائج الثورة (العباسية) كما نرى بين المحصلات، إيقاف التوسع الإسلامي في القوقاز بشكل أبدي.

ومهما يكن الحال، لقد كان لهذا الوضع نتائج وفعاليات أوسع، فمع تاريخ سنة 114/ 732 أيام خلافة مروان، كانت الجيوش المسلمة مشتبكة في السنة نفسها في كل من

---

(1) زكي وليدي، ابن فضلان: 307.

شمالي جبال البيرينه (البرانس)، وفيما وراء القوقاز، هذا وليس هناك من برهان على وجود جهد مشترك مخطط له ومصمم من قبل الخلافة، وتحت إشراف الخليفة في دمشق، ذلك أن احتمالات العكس هي الأقوى، لكن يمكن التقدير أن التهديد الموجه لأوربا والمسيحية لم يكن خطيراً مثله آنذاك، حتى عندما سقطت القسطنطينية، أو عندما وقفت الجيوش التركية على أبواب فينا، فلقد أخفقت المحاولتان المزدوجتان لذلك العام، ففي الغرب هزم شارل مارتل الفرنجي عبد الرحمن (Abderame) بن عبد الله الغافقي في معركة تور (بلاط الشهداء)، ورد الغزاة نحو الجبال[1]، وكانت حرب مروان في القوقاز مجهضة، لكن كما رأينا كان مروان ثانية في عام 119/ 737 في بلاد الخزر، ووصل هذه المرة، إذا كان لنا أن نصدق مصادرنا - إلى مفتاح النجاح، ولو أن بلاد الخزر جرى إخضاعها واحتلالها بشكل دائم من قبل مروان، أو من قبل واحد من خلفائه لشهدت السنوات التالية بلا شك حملات إسلامية كبرى على الدون والدينبر، وصحيح أن العرب أخفقوا في الغرب، لكن كان بإمكانهم أن يكونوا منتصرين في شرقي أوربا، ومن الواضح أن المجال الذي تمكنت بلاد الخزر من البقاء فيه حية كان ضيقاً جداً، لا بل هامشياً، لكنها على كل حال بقيت حية، وبالتالي جرى تثبيت حدود الإسلام في هذا الاتجاه فوق القوقاز بشكل دائم.

(1) حتى تاريخ العرب. الطبعة الثالثة: 501، حيث أشار أنه حتى بعد معركة بلاط الشهداء استمرت عمليات العرب في بقية أجزاء فرنسا.